من هنا وهناك

ملك الله

المصباح

إذا طوعت لأحد نفسه ان يحدث الناشئين بايمانه فما يطمع أن يصلى أكثر الناس بصلاته ؛ فان الناس ذاهبون أشتاتا فى سبل شتى وما يدرون ماذا يكسبون. ويرى شعراء قد زينوا مطيتهم بكل زينة وزودوا عزيمتهم بكل رجاء ثم جاءوا سبلا موحشة ، فكلت مطيتهم وتبددت زينتها وجاءتها الذئاب من كل مكان ، فلم يستغيثوا إلا بما خرجوا له من رجاء :

فان كنت ماكولا فكن أنت آكلى
وإلا فادركنى ولما أمزق

وحسب كل مؤمن أن يمشى فى ثنايا الحى بمصباح ضئيل كالذى يستضىء به شيخ مؤمن ، فينادى عند فجر الاصباح « الصلاة الصلاة الصلاة خير من النوم » ، ثم يتخافت نداؤه فيلبيه مستيقظ ويتصام عن ندائه نائم ، ولا يحفل بذاته أحد فى الحى فهو صدى فى طيات السكون .

والرسل التى تسرى بين الانسان وبين مصيره هى سر الحياة العجز الذى مد فى ملك الله وبسط فى نصيب الحياة إلى كل أمد تبلغه النفس فى الآمال والحلم .

ولم نختر سلنا اختياراً بضياء العقل وحده ؛ فقد يخبو ضياء العقل غير مرة كل نهار حتى تضل بصيرة المبصرين فى أيسر الأمر . ولكن النفس ترسل رسلها ايحاء إلى مهبط الآمال والأحلام ... فهى خلية ينطلق نحلها خماصا فيغشى زهوراً لم تمسسها يد ، ثم يؤوب بما أصاب إلى خليته . وما تدركه رسل كل نفس فى أوجاء الجمال المكنونة العزيزة المنال يهيج فى النفس أعذب ما طربت به النفس .

ومن الناس من يؤمن أن رسل النفس التى تنفذ فى حجب الغيب ثم ترتد مجملة بصور البشرى إنما توحى إلى النفس أقدار الله وتوحى إليهم أنهم يملكون ماسلكوا وما قد يسلكون من سبل البشرى . وهم يزنون أقدار حياتهم بأقدار الله التى تهبط فى أرجائها نفوسهم فى اليقظة والنوم ، وفى ذلك الايمان سلام الحياة الذى يخرج اليسر من العسر والعزة من الهوان ، ويوقد فى أفئدة الذين آمنوا قبساً من ضياء الله .

ويتجمل الأمل ببيان معجز ، وتدنى يد الله صور المجد والعزة والعلم من كائن ضئيل قليل لايكاد يملك من أمره شيئا . ويكرم الله من تهوى إليهم أفئدتنا بصور من السمو ، ويجمل أعمالنا يوم تبرز لآمالنا بأجمل ما تشتهى من صور الجمال . وإلا فما كان لنفس أن تهم بأمر ، وما كان لقافلة أن تسير ، وما كان لشاد أن يشدو .

وإذا جاء كل نفس وحيها استجابت لصمت واعتزلت جانب الناس شيئا حتى لايقطع حديثها قطع ، وحتى تعى ما يدبر الأمل فى أمر ، ثم تهم بما تجد منقادة وتجعل له ما تملك من بذل وعزم .

والتى تظاهر بايمانها أملا إنما يزينها الله فوق أنوثتها بسمو كسمو الله ، والتى تقول لصاحبها ان ارتجف فؤاده : كلا والله ماخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعينه على نوائب الحق .

والتى تتجرد من بعض زينتها فتلقيه زاداً فى رحلة البشرى ، والتى تجهز متاع السفينة وتنظر مستبشرة وتوصى من تحب أن يكون زينة الناس حيث يكون ، والتى تؤازره بقلبها وصلاتها ـ أولئك ينهضن بالحياة نهضة الأمل ويفتحن بأيديهن أبوابا فى ملك الله .

ولم تثمر بذور تمراً أجمل من الايمان بملك الله فى كل نفس . ومن آمن به فقد آمن بالبشرى . ومن آمن بالبشرى كملته البشرى بالسمو واستيقن أن الحياة خلود ، وأنها كانت نعيما معجزاً من خلق الله ، ولا يبرح الأرض حتى تتزين بذكره الأرض وحتى يؤتيه الله عقلا يثمر الرشد والصواب أبداً ويبصر بالحكمة ويدين بالخير .

والدى بيده مفاتيح هذا الملك لايسلمها لكاذب ولو ملك بكذبه ما فى الأرض جميعا . ولا يرد هذا الملك جاف ولا ذو قلب غليظ « حتى يلج الجمل فى سم الخياط » ، ويسلم مفاتح هذا الملك لكل نفس زاكية لم تتلبد بفاحشة ولم يطمس على قلبها ما قدمت وما أخرت من فساد فى الأرض .

والحكمة التى تقبلت الانسان لترده حكيما أرضعته بلبانها بين يدى أمه . فاذا انفردت به قلبته على الجمر ؛ لأن النفس لاتزكو حتى يصهر معدنها ، وألفيت دون معرفتها الآلام والصبر ...

ولا يرتد العلم حكمة حتى تهتك النفس كل حجاب دون الاحساس بالانسانية ... ولا ينفعهـا أن تعى من دون ذلك ما حملت الكتب كالذى يقوله الحكيم :

« قد سمعت أنه كان فى مدينة نقوانيس فى مصر إله من آلهتهم القديمة كانوا يرمزون له بأبيس . وكان اسم ذلك المعبود توت . وقيل إنه كان أول من وجد علم الحساب والنجوم والفلك ووجد فيما وجد علم الكتابة وكان على المصريين ملك يملك مصر جميعاً يدعى طاموس وكان يحكم فى عاصمة كبيرة فى مصر العليا يسميها المصريون طيبة وكان إلهها أمون . فقدم توت على الملك ليريه ما وجد من الفنون وقال له إنه ينبغى أن يتعلمها المصريون جميعاً .

« فسأله الملك عما عسى أن يكون من نفع فى كل فن من هذه الفنون . وكان الملك يقر ما يرى من نفع ويرفض ما لا يرى . وقيل إن تاموس بين لتوت ماله وما عليه فى كل فن وذلك حديث يطول . فلما كان فى شأن الكتابة .

« قال له توت :

« إن ذلك أيها الملك علم سيرد المصريين أكبر حكمة وأكثر ذكراً ؛ ان الكتابة قد وجدت دواء للحكمة والذاكرة .

« فقال له الملك :

« ياتوت إنك أعلم العلماء . وشتان مابين رجلين : أحدهما يستطيع أن يخترع فنا ، والآخر يستطيع أن يرى مافى كل فن من ضرر أو نفع للذين يأخذون به . والآن إنما مثلك فى اختراع الكتابة كمثل الأب من ابنه ، فلا تراها إلا معجباً رحيما وتقول فيها غير ما تستطيع . وأرى أن هذا الفن سيحمل النسيان فى نفوس تلاميذك لأنهم سيغفلون الذاكرة ؛ لأنهم يضعون ثقتهم فى حروف خارجة عن أرواحهم ولا يستذكرون بالرجوع مباشرة إلى أرواحهم . وإنك لم تجد دواء

للذاكرة وإنما وجدت دواء للرواية . ولست تحمل لتلامذتك الحكمة الحقة وإنما تحمل لهم ظاهراً من الحكمة. فان أطاعوا اتباعك دون أن يتهذبوا بدا لهم أنهم على علم بكثير من الأمور وهم فى حقيقة الأمر لايبلغون بادراكهم شيئا وينقلبون عسيرى المعاشرة ويخالهم الناس حكماء وما هم بحكماء . »

وكذلك لايبلغ شباب أمة ما أودع الله الانسانية كيانها من جمال حتى يؤمن برسل البشر فى حياته ، ولا يكذب بما توحى إليه من كمال ولا يعصيها ويطيع النهاون والعافية ، وحتى يقدم لها ما ملكت أيمانه من جهاد ، ولا يعتز بالنصر اعتزازه بالهزيمة التى تحفزه إلى نصر أكبر حتى يبلغ كيان الانسانية فى قلبه ، وهى التى تلد الجود والاقدام والعدل ، وهى التى تخلق الأحرار والسادة فى الأرض ؛ لأن المجد فتوح فى سلك الله .

على حافظ

دوافع السير فى المجتمع

هذا مقال لخصت فيه مذهب الدكتور جوستاف لوبون فيلسوف الاجتماع فى القرن العشرين . وقد شرح مذهبه بكتب عدة ترجم أكثرها إلى اللغة العربية فبقيت فى زوايا الخمول لايعيرها أحد من الخاصة أى اعتناء يذكر ، على أنها أبحاث خطيرة صرف الدكتور لوبون أكثر عمره فى شرح مبادئها وأصولها .

ولعل أحد الأسباب التى منعت انتشار هذه الأبحاث وتداولها جفاف أسلوبها وصعوبته واصطدامه بالقارى لأول وهلة ، فحرم منها كثير من الخاصة وبقيت حيث هى . على أنى لا أقصد بالأسلوب : أسلوبها اللفظى فى الأصل ولا فى الترجمات المختلفة التى خرجت على أيدى كتاب أفاضل ، بل أعنى أسلوب تلك الأفكار الغريبة التى أتى بها جوستاف مع شىء من الأرستقراطية فى التعبير مما لاتطول معه روح القارىء .

وقد جاءت أبحاثه حقا آية من آيات البحث العلمى ، وإن كان أحياناً تفوته الأمثلة المسلمة لبعض ما عنده من المذاهب . وهى جديرة بأن تفتح على الرجل المثقف أبواباً جديدة من المعرفة لاتزال مجهولة عند كثير من المتعلمين بهذا الشكل العلمى المنظم .

ومن يقرأ هذا الشرح يهون عليه فهم روح الدكتور جوستاف واستكناه أى شاه من كتبه بدون مشقة ولا جهد . وسوف يجد لذة كبيرة فى تتبع بحوثه لما تبعثه فى النفس من روعة المعرفة وجلال العلم

فليس شىء أحرى بالقراءة والبحث من الوسائل التى تعين الانسان على التغلغل إلى أعماق الحوادث النفسية والاجتماعية الغامضة واستكناه سرها من وراء مجموعة مضطربة من الظواهر التى تخفى عادة ما خلفها من الأسرار .

وجوستاف خير من كتب فى هذا الموضوع ؛ فقد أتى هذا الفيلسوف الكبير بمذاهب أقامت ثورة بين الأوساط الثقافية فى فرنسا ، خاصة منها ما كان يؤيد الثورة الفرنسية ،وما أكثرها فى فرنسا . فقد شرح فيها جملة آرائه فى العوامل المسيرة للفرد والجماعة ، وكيف تنشأ المعتقدات وأى نوع

من العوامل يسيطر على المعتقد ويوجهه ، وكيف تتكون الآراء اليومية للفرد العادى والأسباب المتمكنة من عنان الفرد حين يغدو ويروح .

وقد جاءت كتبه أبحاثا خطيرة ليس لها نظير فى تاريخ الثقافة الانسانية . فكثيراً ما بحث البشر عن العلوم العقلية التى توضح الأساليب المنطقية لصور القياس الصحيح ؛ ولكنهم قلما بحثوا فى العلل العاطفية التى تكون المعتقد . لذا جاءت أبحاث الدكتور جوستاف اكتشافاً جديداً فى ميدان العلوم الاجتماعية . فقد رجع فيها العلل المسيطرة على سلوك الفرد والجماعة إلى خمسة أنواع من المحرضات الاجتماعية التى تسير الحياة العامة . وهذه الأنواع الخمسة من المنطق هى :

١ — المنطق العقلى ، وهو الملكة التى يتوسل بها الانسان إلى الأحكام المنطقية بالشكل الذى يفصله علم المنطق ؛ وهو ترتيب المقدمات واستنتاج المجهولات من المعلومات بشكل عقلى قياسى صحيح . وهذا النوع من المنطق هو الذى يدير عجلة العلوم والمعارف والاكتشافات والقياسات الرياضية الصحيحة ؛ إلى غير ذلك مما يشترط فيه صحة المقدمة وسلامة القياس .

وتنقاد هذه الملكة على الدوام لمشاعر الفرد . فالعقل هو آلة مطيعة لأوامر العاطفة التى قد تشاء أو لا تشاء الحكم العقلى فى موضوع من المواضيع . فعمل العقل هو أن يبحث عن علل موزونة تسوغ سير عاطفته بخلاف ما لو كان العقل مجرداً من هذا التحكم ؛ فانه كما هو غنى عن البيان يحاول أن يرتب قياساته بالشكل الذى ينتج إنتاجاً صحيحاً أو قريباً من الصحة على أقل تقدير . فليس من عمل العقل — من حيث هو — أن يفترض حكماً ثم يبحث عن مسوغات ذلك الحكم من الأدلة والبراهين . وكون الأمر على عكس ذلك يشعر بأن العقل غير مطلق من سلطة ثانية تسيره حسب أهوائها . لذا أتيح لجوستاف أن يستنتج من ذلك انقياد العقل أو المنطق العقلى لأنواع أخرى من المنطق سيأتى ذكرها أثناء البحث .

وأرجو ألا يلتبس على القارئ معنى كلمة « منطق » حسب اصطلاحها الخاص هنا . فهذه الكلمة ، كما يريدها الدكتور جوستاف تعنى « جهازاً » أو « أداة » مهما كان نوعها . لذا فانها لاتشير — حسب هذا الاصطلاح — إلى المعقولات أو القياسات المنسقة كما يلتفت إلى ذلك عادة حسب اصطلاحها العام . فالمنطق العقلى والمنطق العاطفى والمنطق الدينى ومنطق الجموع ومنطق الحياة — كل أولئك أجهزة أو أدوات متصفة بتلك الصفات . وهذا تعبير حسن عن ذلك المعنى الذى يدل على أداة مسيطرة على ناحية من نواحى النفس الانسانية .

ونود أن نشير إلى أن الأمثلة عنصر هام فى التدليل على نظرية جديدة ، تلك التى لا تستطيع أن نوفيها حقها فى مجال ضيق مثل هذا . فبدل أن نتوسل بكثرة الأمثلة نكتفى لاثبات هذا النوع من المنطق عند الانسان ، بأن نشير إلى أعماله الخارجية التى تشعر بوجود مثل هذه الملكة عنده ؛ ففراساته الصادقة وقياساته اليومية المتعددة التى غالبا ما تصيب لب الواقع ، هى دليلنا الوحيد على وجود مثل هذا الجهاز بمثل هذا العمل المعين . فلو لم يكن ذلك الجهاز — أو ذلك النوع من المنطق — لما أدت تفكرات الانسان إلى نتائج مقررة فى غالب الأحيان .

ومن المهم أن نذكر أن المنطق العقلى لما

يتعد بعد حدوداً معينة مقصورة على مجال ضيق فى حياة البشر . فمع أن الانسان استطاع أن يرقى بمنطقه العقلى فيسخره فى التجارب العملية التى نشأت منها حضارة العصر الحاضر ، فانه لم يزل محدود الأثر فى معتقداتنا وميولنا فى هذا العصر ؛ مما يدل على أن نشوء المنطق العقلى جاء متأخراً عن وجود سائر أنواع المنطق فى الانسان . وعلى أن هذا دليل نظرى على تأخر نشوء العقل ، فان هناك دليلا استقرائيا لا ينكر ؛ ذلك هو خلو العجماوات والحيوانات الدنيا من هذا المنطق أو هذا الجهاز . لذا فهو صفة « ناشئة » فى (الحيوان الناطق) ما دمنا نسلم بأن الحيوانات جميعاً نشأت من أصل واحد .

ولما كان المنطق العقلى هو ميزة الانسان الكبرى ، فما أكثر ما تنسب إليه الآراء والمعتقدات عند تسويغها . ولو علم الناس أن العقل براء من كل معتقد على وجه التقريب لتبين حينذاك مدى قصور المنطق العقلى عن تسيير دفة الانسانية وتوجيهها الوجهة التى يرتضيها . فلو كانت هذه الدعوى صادقة لما تناقض الناس هذا التناقض العجيب فى الآراء والمعتقدات ، ولكانت هذه أقرب إلى الالتئام منها إلى التعاكس بهذا الشكل الفظيع .

وعلى أن هذا لا يمنع من أن بعض النتائج المنطقية لا ترضى من الوجهة العملية ، بقدر ما تجدى المشاعر والآراء العاطفية . فكم صيغت الأحكام العقلية التى لا تنفذ بشكلها المنطقى الرزين — بصيغ عاطفية لاقرارها فى دائرة المعتقد ... فلو وقف أفلاطون خطيباً فى هايد بارك لما استطاع أن يجمع حوله من الجمهور بقدر ما يلتف حول أحد هؤلاء المبقين الذين يهزون مشاعر الناس بروعة صيغهم العاطفية فى طراز القياس .

وتملى الناس للأحكام العقلية مباشرة يستلزم درجة من الرقى فى المنطق العقلى مع درجة مماثلة فى حريته أو انطلاقه ، بحيث تتوازن فى الانسان أنواع المنطق كافة؛ أى عند التقاء العقل الصاعد بأنواع المنطق الأخرى ، الهابطة ببطء لا يكاد يظهر .

وستمضى عصور طويلة قبل أن يتم ذلك على هذا النحو المذكور ، وقبل أن يختص الطريق فيحل المنطق العقلى محل سائر أنواع المنطق فيصبح شيئاً له وزنه فى ادارة دفة الانسان .

وكم أخطأ الساسة عند ما حاولوا أن يحلوا بالمنطق العقلى مشاكل لا تجدى معها غير أساليب معينة من اللعب بأحلام الرجال ، مما قد يمهر فيه صعلوك من صعاليك البيان . لذا وصف السياسة أحد الأعلام بأنه استغلال لأباطيل المجتمع وأن العلم كفاح مع هذه الأباطيل . وقد كان وصفاً رائعاً بحق .

والجملة : أن المنطق العقلى لا يزال محدود الأثر منزويا فى مجاهيل لا يصلها إلا الأفضلون من الناس ممن وهبوا — على غير علم من الطبيعة — تلك الرزانة والتوازن فى الملكات والقوى النفسانية الذى كفت به العناصر العاطفية إلى حد معقول فأتيح لهم النفوذ إلى حقائق الأشياء .

٢ — المنطق العاطفى ، وهو ثانى الأنواع الخمسة من المنطق التى تسيطر على سلوك الفرد والجماعة . ولما كان البحث فى أحد هذه الأنواع يستلزم البحث فى الآخر لما بينها من ارتباط وثيق يدعو إلى المقارنة دائماً ، نرانا غير مضطرين إلى بيان مفصل فى التعريف بهذا النوع وبالأنواع الباقية من المنطق .

فالمنطق العاطفى هو تلك الملكة التى تنشأ عنها مشاعر معينة فى الرغبة والارادة، بدون أن يكون للعقل أى تحكم أو سلطان على تقلبات هذه المشاعر . فالجندى الذى يلقى بنفسه فى أتون الحرب لأجل مثل معينة ، هو مظهر صادق لتأثير ذلك النوع من المنطق فى الانسان . ولو كان للعقل أثر فى هذه التضحية لرجع الفرد إلى نفسه مسائلا عما قد يجنيه هو نفسه من كل ما يعمل وهو أمام خطر الموت . ولكن بعد المنطق العاطفى عن تأثير العقل جعل الأول حرا فى التعرف بارادة الانسان وزجه إياه فى مظان لا يؤيدها العقل غالباً . أما عمل العقل فأن يبحث ، طائعاً لأمر العاطفة، عن تصاميم ينقض بها ذلك الجندى على أعدائه .

وجميع المشاعر القومية والوطنية التى تبعث على الشعور بـ « النوعية » هى من هذا القبيل ، داخلة فى حدود المنطق العاطفى الذى لا يعرف للعقل حكماً أو سلطانا . ومن هنا يتناقض العقل الفردى بكثير من أصول الأخلاق المتبعة فى الوقت الحاضر، فتظهر للفرد كأنها زائفة وإن كانت فى مصلحة المجموع دائماً . ويمكن أن نفترض فى تعليل ذلك أن الطبيعة جهزت «النوع» بعقل خاص كما جهزت الفرد بمثله وإن كانا متناقضين أحياناً .

فالمنطق العاطفى إذاً مجموعة من المشاعر قد توجدها حاجة مادية أو طراز نفسانى معين يبعث تلك المشاعر ويمكنها من قياد الانسان .

٣ — المنطق الدينى ، وهو ذلك الاستعداد الخاص للايمان بالغيبيات ، واعتبارها حقائق مسلمة لا تقبل الجدل . وقد تكون بعض عناصر التدين — ككل نوع آخر من أنواع المنطق — داخلة فى حدود المنطق العقلى . لكنها لاتؤخذ بذلك الشكل الخاص الذى يأخذ به المؤمنون عقائدهم الدينية . فكثيراً ما اعترف جوستاف بأن هناك قوى مجهولة عاقلة تدير عن كثب دفة النظام فى الطبيعة ؛ فتلك مادة أساسية فى المنطق الدينى وإن كانت مما لا ينكره العقل .

فالمؤمنون — سواء كانوا من الملاحدة أو من غيرهم — قوم تلتهب نفوسهم حماسة ويقيناً بكل نص من نصوص مذاهبهم . وأقل اعتراض على نبذة من معتقدهم كاف لاستفزازهم بشكل لا تجدى معه كل المثل العقلية فى النقاش والمناظرة . وأبرز صفة يتصف بها هؤلاء المؤمنون هى أنهم ينكرون المبادئ جملة ، أو يعتنقونها جملة ؛ أما التبعيض واختيار أقرب ما فى مبدأين متضادين إلى الحق ، فتلك ميزة المنطق العقلى الذى لا يهمه إلا ما كان له دليل منطقى يسنده .

وملكة التدين أو المنطق الدينى لا حد معها ، عند المؤمنين ، لكثرة التصديق والايمان بالمعجزات والخوارق التى يأنف المنطق العقلى أن يبحث فيها . فما دام هناك من يقدر على عمل كل شئ فلا مانع من تصديق كل شئ . لأن استثناء شئ من هذه الفرضية أمر يتنافى مع تلك الروح المتأصلة فى النوع الانسانى منذ نطق وأصبحت له ميزة الانسان ؛ ألا وهى روح التدين التى لا تقبل الأشياء إلا جملة ولا ترفضها إلا جملة .

وقد أضل المنطق الدينى أعلاما فضلاء جرهم إلى سخافات لا تقترن عادة إلا بالدهماء والعامة من الناس . فلقد سلم هؤلاء ، بايمان وحرارة ، بكثير مما جاء فى النصوص الدينية مما يتجنبه المنطق العقلى

السليم ، ناسين أن الذى أملى عليهم ما أملاه ليس العقل وإنما روح التدين التى لا يقف فى وجهها أسطع البراهين وأوضحها والتى لايخلو منها أكثر الناس حذراً ودقة. فهى التى زعزعت أركان التاريخ مراراً ، وهى التى أقامت حضارات وأسقطت حضارات .

وقد أفاد وجود هذا النوع من المنطق فوائد عملية أحياناً . فلقد استطاع رجل أن يبيع رفات قسيس مقدس على أنه يشفى المرضى من كل داء . فداخل الايمان بعضهم بحرمة هذا الرفات وسرعان ما شفوا مما يشكون من أمراض نفسية مزمنة . وليس ببعيد عنا ما صنعه « آفاك » الراهب الأرضى عند ما جال فى ربوع الشرق الأدنى . فلقد استطاع هذا القسيس ذو الوجه النورانى الساطع أن يلقى فى نفوس بعض المؤمنين من الايحاء ما شفوا معه من بعض ما يشكون . وأمثال ذلك كثير بين قبائل الجنوب فى العراق الذين يأتون بمرضاهم ، وقد شل ما بهم من أعصاب ، إلى بعض الأماكن المقدسة فينال بعضهم الشفاء بهذه الطريقة البسيطة .

وخلاصة ما مر أن روح التدين صفة متأصلة فى النفس الانسانية ، منشؤها روح الأمل والرغبة خاصة بين أولئك الذين أرهقتهم الحياة بأعبائها ، فاطروا إلى نوع من الخيال أشبه بأحلام اليقظة يسرون به عن نفوسهم الأذى والهم فيعدونها بفوز ويسر كبير . واستناداً إلى وجود هذه الروح كان نشوء الأديان شيئاً ملائماً لمزاج الأنسان أشد تلاؤم ، وقد ملئ به فراغ لم يكن لينفع تركه شاغراً غير مشغول . إذ جعلت الأديان من حياة المؤمنين حلماً فيه كثير من المتعة واللذة هما السبب فى سعادتهم واطمئنانهم إلى المستقبل .

— ٤ منطق الجموع ، وهو رابع هذه الأنواع الخمسة من المنطق التى افترض وجودها الدكتور جوستاف ليعلل بها مجاميع من الظواهر الاجتماعية والنفسانية المتباينة والتى تشعر بنزوعها جميعاً إلى خمسة أصول ، هى أنواع المنطق الخمسة. وعلى أننا لانذهب بعيداً مع الدكتور جوستاف فنقر هذا النوع الأخير قسما أساسيا لتلك الأنواع الأخرى ؛ لكننا نعتقد مع ذلك أن مظاهره واضحة خاصة فى مجتمعاتنا الحاضرة . فقد كان من الممكن أن نلحق هذا النوع بالنوعين الأخيرين لتفرعه عنهما فى الواقع . لكن ظهوره وبروزه وكثرة أمثلته وشدة فاعليته يستحب معها جميعاً أن نقرر له بحثاً مستقلا نجمل القول فيه .

فمنطق الجموع هو ميزة الجماعات التى تنتشر بينها الآراء والمعتقدات بالعدوى والتلقين . فقد تحركها كلمة صغيرة فتحملها على ثورة عاصفة تخشى خطرها أقوى الدول وأشدها منعة وأكثرها بأساً . وكم لقنت الجماهير آراء قلبت بها حكومات وأقرت أخرى بعد هيجان وضوضاء تم بها تنفيذ رغباتها بقوة وبأس . وكم عصف بالجماعات خطيب مصقع فأقلق بها الامن وزعزع بها السلطان . كل هذه حوادث عادية منشؤها تلك الروح المتأصلة فى الجماهير والتى تسندها شدة العدوى والتلقين فتسرى بهما الآراء والمعتقدات بين الدهماء والغوغاء فتوجد منهم قوة لاتقاوم .

وأول مبادئ السياسة فى الوقت الحاضر النزول على رغبات هذه الجماعات المتقلبة التى تعصف بها الميول المتذبذبة ، وتحاشيها على أى حال . والسياسى الناجح فى البلاد التى تبيح حرية الرأى والكلام هو الذى يعرف كيف يخضع لهذه القوى الهائلة وكيف يرضيها ؛ لا الذى يخلص أو يحاول السير

بموجب ما تمليه المصلحة وما يحتمه العقل. وهذه نتيجة مسلمة ما دام الحق كل الحق للجماعات أن تشاء أو لا تشاء أمراً بعينه مع قطع النظر عن نتائج أخرى قد يتحتم وجودها عن علل غير مقصودة .

وما الثورة الفرنسية إلا مثل صادق لهذا المنطق الذى استطاع أن يلعب دوراً مهما فى العصور الأخيرة ، بتطورات الحضارة والأحوال السياسية العامة . فلقد أدى قيام عدة أشخاص أفذاذ جردوا ألسنتهم وأقلامهم البقة فأثاروا شعباً دوخوا به العالم فيما بعد .

والخلاصة أن منطق الجموع هو الملكة التى تنشأ عنها الاندفاعات الجماعية بتأثير عدة عوامل من التحريض والترغيب والوعد والوعيد وتلقين الجماعات مبادئ أو آراء معينة لغرض من الأغراض .

وليس العقل هو الذى يملى على الجماهير الشيوعية فى بعض أنحاء العالم اليوم ثورة دامية مثل هذه ، لكنه المنطق العاطفى ومنطق الجموع الذى يمهد للخطباء والزعماء وذربى اللسان أن يحرضوا على انقلابات خطيرة يذهب ضحيتها ملايين من الناس .

٥ — أما المنطق الخامس فهو منطق الحياة وهذا هو أقدم أنواع المنطق فى الحيوان والانسان على السواء . وهو القوة الدافعة لارادة الحياة وحب الذات وحفظ الأنواع . فهو الذى يملى على الحيوان ـ ناطقاً كان أو أعجم ـ بفعل اللذة والألم ، أن يسعى من أجل حياته سعياً حثيثاً متواصلا لا هوادة فيه . وهو الذى يملى على الحشرة من الحيوانات الدنيا أن تأتى بأعمال لو كان منشؤها المنطق العقلى لتم تأليف علم من أوسع العلوم وأشدها خطراً . لذلك فهو ناحية غامضة تحيط بها الأسرار وتكتنفها الألغاز .

وهو أقدم أنواع المنطق لأنه يوجد فى الحيوانات كافة دنياها وعلياها على السواء . فكما أنه يبعث جماعات النحل على اتباع نظام جد معقد ودقيق للمحافظة على كيانها فهو الذى يبعث الانسان ـ وهو أرقى الحيوانات ـ على اتباع مثل ذلك النظام للغرض نفسه . ولولاه لما كان للأحياء ميزة على الجماعات ، ولما كان للحياة قيمة ولا أثر على الاطلاق ؛ لأنه الدافع الأول لأرادة الحياة والحرص على حب البقاء .

نظرة عامة

ثم استمر الدكتور جوستاف على هذه الوتيرة من البحث . فالمعتقد عنده راسخ لا تناهضه أقوى العوامل المنطقية وأشدها . والانسان لا يمكن أن يلبث بدون معتقد . فلو هرم عنده إحد المعتقدات وزال فسرعان ما يحل محله معتقد جديد بنفس الخصائص والصفات . والأمة عنده لا تستطيع أن تتخلص من ماضيها مهما طرأ على حياتها من التغير والتبدل . وهى مكبلة بما لها من العادات والطقوس التى يستدعى إلغاء أحدها ثورة جامحة بعد أن تدعوها مثلها العليا لمناهضة الخارجين على تلك النظم الأدبية الراسخة .

وروح الفرد قد تزلزل بعض عوامل التربية والمحيط ، لكن روح الأمة ثابت لا يتغير .

وكثيراً ما شجب سياسة فرنسا إزاء العرب فى أفريقيا الشمالية لأنها قد أخذت على

عاتقها تمدين هذه الأقطار ولو كلفها ذلك أبهظ الأثمان ، ناعياً على ساستها جهلهم بروح الأمة ورسوخها إلى حد لاتجدى معه أقسى السياسات وأعنفها .

أما الثورة الفرنسية فيرى أنها حركة أهدرت فيها الدماء ومثل أصحابها أشنع مايعرفه الانسان من البربرية والوحشية . فما أقسى روح الجماهير إذا ماسنحت لها فرصة الشغب والانتقام . وروح الأمة لا ترحم إذا ما استبدت بها الثورة والخروج على النظم . ويكاد يقرر بطلان النظم الديموقراطية التى تكهن أنها ستخرب فرنسا وستضعها فى أسفل درجة وأحط مكانة بين الأمم لما للجماهير فيها من الحرية التى تسوغ لها شن ضروب المعارضة والتهديد ؛ فأثار عليه بذلك ثائرة الكتاب فى فرنسا كلها . فكان مثله معهم كمثل الجراح ممسكا بمبضعه يشرح به عقول ناقديه ضارباً بهم المثل على رسوخ المعتقد ونزوعه إلى العاطفة فى دائرة اللاشعور .

أما الفرد المتمدن عنده فهو الذى انفصلت روحه عن روح جماعته . وهذه هى ميزة المدنية الحاضرة التى نجحت إلى حد لا بأس به فى فصل روح الفرد عن روح الجماعة . فأول ميزات الجماعات البدائية أن روح الفرد فيها غير منفصل عن روح جماعته . لذا يعد أحد أفراد القبيلة المتوحشة مسئولا عن كل ما تقترفه جماعته إزاء قبيلة أخرى ، من هذا الطراز .

أما التربية عنده فلا أثر لها سوى صقل المواهب والاستعدادات الخاصة لازالتها أو تبديلها . فهى لاتفعل شيئاً سوى حفز العناصر النفسانية لاتغييرها .

وأما الينبوع الأول الذى يسيطر سيطرة تامة على نشأة الفرد ، فهو مزاج الجماعة الذى يشتق منه مزاج الفرد العادى . ومبادئ التربية عنده ضعيفة لاتلبث أن تتحطم على صخرة المعتقد والبيئة والمحيط .

[النجف] حسين محمد الطيب